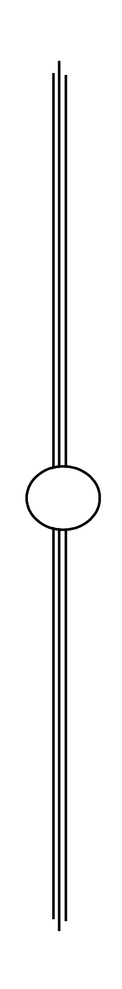
المستشـــرقون ودراســـة التصوف



مـــيزان الرحـــمٰن الـــعلائى

بريد الكترونى: mizanamjadi97@gmail.com

المستشـــرقون ودراســـة التصوف:نـــظرة فاحـــصة

دعونا فى بداية المباحثة نوضح أن الكتابة قيد المراجعة سوف تقوم على جزأين ان شـاء الـلـه تـعـالـى، سـنـحـاول فـى الجزء الأول منهما القاء الضوء على المستشرقين وأفـكـارهـم وتـاثيـراتهـم، وبيـنـما فى الجزء الثانى سيقدم تحليل نقدى لوجهات نظر المستشرقين فيما يتعلق بالتصوف الاسلامى.

مقدمة عن المستشرقين:

ان هـذه الـكـلـمة "الـمستشرق"هى صيغة من اسم الفاعل من باب استفعال، حيث تـكون المادة "ش، ر، ق"، وبما أن احدى خصائص باب استفعال هى "طلب الماخذ" فـان كـلـمة "المستشرق" تعنى"الطالب الى الشرق". الآن ماهو المستشرق من حيث الاصـطـلاح؟ فـاستمع لى! نتيجة لاحياء العلوم وحركة النهضة فى الغرب الحديث بدأ تحرير العلوم والفنون، تحولت مجموعة من المفكرين الغربيين من العلوم الحديثة الى الـعـلوم الشرقيه وعلى وجه التحديد الى العلوم الاسلامية،والآن بعد أن جعلت جماعة مـن الـمـفـكرين الغربيين من العلوم الشرقية مركز أبحاثهم،كأنت هذه الجماعة دعت الـى الـعـــــلوم والفنون الشرقية،وبما أن الذين يطلبون أشياء تتعلق بالشرق يسمون "المستشرقين"، نحن نسمى هذه المجموعة من المفكرين الغربيين الباحثين فى علوم الشرق بالمستشرقين.

أهداف و غايات الحركة الاستشراقية:

مـمـا لاشـك فيـه أن دخول المستشرقين فى مجال العلوم الاسلامية أدى الى نشر الـعـديد من المخطوطات النادرة التى كانت ترقد فى الزوايا السرية للمكتبات وهكذا تـم انقاد رأس المال الفكرى من الضياع، لكن الخسارة كانت أكبر بكثير من الكسب ولايـمـكـن تـعـويـضهـا. قبـل مبـاحثة الـسـلبيات مباشرة، دعونى أفهم هنا ماهى النوايا

الحقيقية والأهداف للمستشرقين من وراء البحث فى مجال العلوم الاسلامية ؟ بشرح هذه النقطة ستفهم السلبيات ان شاء الله. وبحسب المفكرين الاسلاميين فان الأهداف والغايات الرئيسة للحركة الاستشراقية هى كما يلى:

١ـ كان من أهم دوافع المستشرقين ورآء اهتمامهم بالدراسات الاسلامية تشوية تعاليم الاسلام ومفاهيمه المستنيرة بين المجتمع الاسلامى وغيره.

٢ـ بالنظر الى عقلانية التعاليم الاسلامية والصورة المشوهة للمسيحية، ربما كان هؤلاء المفكرون الغربيون يدركون جيدا أن الاسلام هو الدين الذى سيجذب الغرب بسرعة فى المستقبل، فأحد الأهداف الرئيسية للحركة الاستشراقية كان لمنع انتشار الاسلام فى الغرب ومنع العالم المسيحى من أن يصبح مسلما.

٣ـ كان من الأهداف الرئيسية للحركة الاستشراقية التشكيك فى الأفكار الاسلامية على المستوى الدولى بحيث يصعب على الاسلام الانتشار فى الغرب، وفى نفس الوقت تحررت طبقة المسلمين المثقفين من التعاليم الاسلاميه وأصبحت عبيدا لنا عقليا وفكريا.

٤ـ كان من أهم أهداف المستشرقين توعية العالم المسيحى بنقاط القوة والضعف لدى المسلمين والدول الاسلامية حتى يدرك الغرب ضعف المسلمين قبل مهاجمة المسلمين وعندما يحين الوقت يمكنهم قطع شريان الأورطى للأمة الاسلامية.

٥ـ مستوحاة من فلسفة ابن رشد، عالم مسلم معروف من القرن الحادى عشر، ظهرت جماعة من المفكرين فى الغرب الذين آمنوا باصلاح الدين، درست الجماعة الاسلام و وضعت مخططا لاصلاح العالم المسيحى، مع مراعاة فضائل الفكر الاسلامى. مارتن لوثر هو مثال واضح على هذا الادعاء.

٢ ـ كان هناك بعض المفكرين الغربيين الذين أرادوا فقط أن يرويوا تعطشهم للعلم ولهذا الغرض بدلامن الاعتماد على الافتراضات والترجمات الانجليزية، تعلموا اللغة العربية واتجهوا مباشرة الى المصادر الأصلية، لكن هذا لايعنى أن من لجأ الى المصدر الأصلى تصرف بأمانة وصدق. بدلا من ذلك، هناك عدد قليل من المستشرقين الذين يظهرون الصدق والنزاهة.

نظرة على الخسائر:

لقد استفدنا قليلا من الحركة الاستشراقية لكن الضرر قد لايتم تعويضة لقرون.

ا ـ نتيجة لجهود الحركة الاستشراقية، لم يتأثر العديد من المسلمين الأقوياء بالحضارة الغربية فحسب، بل لم يتركوا أى جهد فى تشوية الوجه المشرق للاسلام. فى هذا الصدد، يمكننا أولا تسمية الزعيم التركى القومى محمد ضياء جوألب الذى دعا الى تبنى الحضارة الغربية وقال:

We are part of Western civilization and have an integral share in it. Our only road to salvation is to adopt Western civilization completely(1).

الترجمة: نحن جزأ لايتجزأ من الحضارة الغربية، والطريقة الوحيدة لخلاصنا هى احتضان الحضارة الغربية بشكل كامل.... وأضاف ضياء جوألب:

It only by means of its civilization that Europe has been able to defeat the Muslim nations and become the Master of the world. Why, then, should we hesitate in taking over this same civilization which has approved so successful(2).

الترجمة: ان الحضارة الغربية هى التى على أساسها هزمت أوروبا الدول

الاسلامية، فلماذا نتردد فى تبنى مثل هذه الحضارة الناجحة؟

مـاعـدا محمد ضياء جوألب، كان مصطفى كمال أتاترك من تر كى، وجمال عبد الناصر من مصر، ورضا شاه بهلوى من ايران، وأحمد سوكارنو من اندونيسيا، وحبيب بورقيبة من تونس ومعمرالقذافى من لبنان من بين القادة الذين تأثروا بالحضارة الغربية وابتعدوا عن الحضارة الاسلامية نتيجة الاستشراق،وقد بذلوا قصارى جهدهم للقضاء على الحضارة والثقافـة الاسـلامية.وأصدرالرئيس التونسى،مستوحيا من كتابات الـمستشرقين، مثل هذه التصريحات المهينة للقرآن وصاحبه يصعب تخيلهاـــ واذا تـم حـذف الكلمتين " مصر و عرب" من القرارالذى قدمه جمال عبدالناصر فى مصر، فـلا يـوجـد شـئ اسـلامى فى القرار بأكمله ـــ وعندما حاول معمر القذافى دحض الحـديث، ذهب حبيب بورقيبة الى أبعـد من القـذافى بخطوتين وشكك فى القرآن الكريم.

المتعلمون الحديثون:

جاء ت احدى أخطرنتائج الحركة الاستشراقية فى شكل المثقفين المعاصرين، أى أولـٰئک الذين ذهبوا الى الغرب للدراسة أوعاشوا فى بلادهم وزينوا أنفسهم بالتعليم الـحـديـث،كان للمستشرقين تأثير عميق ومعادى للاسلام على كثيرمن الناس من كلا الـنـوعيـن. دعونى أوضح أنه لم يكن هناک مكروه فى اكتساب التعاليم الحديثة بحد ذاتها، ولكن من واجبنا أن نكتسب كل علم حديث الى جانب التعاليم التقليدية، سوآء كـان عـلـيـنـا الذهاب الى الغرب أوالصين من أجل ذلک. على العكس من ذلک، اذا كـنـت رئيسا أو رئيساللوزراء لدولة ما، فستكون ميزانية التعليم هناک بالتاكيد أعلى من ميزانية الـدفاع لأننى أعتقد أن التعليم هو أكبرسـلاح دفـاعى، لكننى آسف، لايـمكننى فعل ذلک لأننى فى الأساس مزارع وأقوم بالزراعة، ويا سيدى! لابدلى من

ادارة منزلى فلايمكننى ادارة البلد. على أى حال! كان يدعى أن المستشرقين كان لهم تـأثيـر عـميق وبعيدالمدى على العديد من المثقفين المعاصرين. فى الواقع، لم يحاول اخواننا المسلمون هؤلاء أبدا فهم الاسلام من قبل علماء الاسلام البارزين،لكنهم لجأوا الـى الـمستشـرقيـن فـى كـل قـضية ثم شربوا السم الحلو الذى قدموه لهم باعتباره مآء الـحيـاـة. ومـع ذلـك، وفقا للقواعد،كا ن يجب أن نفهم أى فن من خبرائه ومخترعيه. ويـجب علينا بالطبع أن نلجأ الى الغرب لنفهم العلوم التى اخترعوها، لكن كيف يمكن لـلـغرب أن يوجهنا فى العلوم التى نحن أئمة لها؟وحتى عندما يكتسبون علومنا ليهينونا أمام الـــعالم؟ فى هذه الحــــالة، هل يمكن أن تتوقع تفسيرا متــوازنا و منصــــفا من المستشرقين؟ ماشاء الله! انت فهيم و أريب.

على أى حال!أنظر نتيجة تعلم الاسلام من المستشرقين باستثناء علماء المسلمين البارزين.مصابا بالحركة الاستشراقية يكتب لبيب فى رهبة:

Just as Martin Luther broke down the barriers of dogma in christianity and Moses Mendelssohn sought to bring a progressive refomed version of Judaism to the jews,so liberal Islam must also be recognized and given its place by the Orthodox(3).

التـرجـمة: (الله اكبر! ترجمة هذا الاقتباس هى صفقة كبيرة، ولا أريد حتى اعادة قرأتها، لكنى فقط أترجمها هنا تحت " نظرة الضروة".ان لبيبنا هو يكتب) : مثلما أزال مـارتـن لـوثر حوائز العقائد والأصول فى المسيحية و سعى موسى ميندلسن الى تطوير نسخة تقديمية ومصلحة من اليهودية لليــــهود،كذلك يجب أن نحقق اســــلاما حرا للفكرويحل محل الرجعى.

مستوحيا من الفكر الاستشراقى، كتب باحث آخر:

In every Muslim country from Saudi Arabia to Mauritania and from Indonesia to Pakistan, the Muslims are today struggling for a bare existence.The Mullas will blame western influence for this decadence. They forgot in those places where western influence has not yet penetrated,one sees the very worst picture of Islam. Would they deny me the fact that the worst and most backward palces are not those where the Western winds of progress have swept through, but those where for centuries the abuses of religious authority have been perpetuated by the Mullas. To get rid of all the curses afflicting the Muslim world, we will have to forget all interpretations of the Quran given by dogmatic learned men, The day we will try to understnad Quran by ourselves, we will be able to save Islam; to save our women from the indignity of 1400 years; we will be able to bring them under the light of freedom and equality. Religion will be practiced by love and not by compulsion.Life will be free from boredom.There will be plays as will prayer and we will see the beautiful meaning of Islam as a clear-cut diamond(4).

الترجمة:من المملكة العربية السعودية الى موريتانيا ومن اندونيشياء الى باكستان،

يكافح المسلمون اليوم من أجل وجودهم، سيعزو "الملا" هذا التراجع الى التاثيرات الغربية لكنهم ينسون حقيقة أن أسوأ صورة للاسلام يمكن رؤيتها فى الأماكن التى لم تصل اليها التاثيرات الغربية بعد. هل يمكن لهم أن ينكروا وجهة نظرى بأن الاماكن التى هبت فيها رياح التنمية الغربية ليست متخلفة بل الأراضى التى تم فيها انشاء السلطة الدينية الفقيرة لهؤلاء "الملا" منذ قرون؟ من أجل انقاذ العالم الاسلامى من المصائب واللعنات، علينا أن ننسى جميع تفسيرات القرآن التى قدمها هؤلاء المتصلبون. فى اليوم الذى نحاول فيه أن نفهم القرآن بأنفسنا ، سنكون قادرين على انقاذالاسلام وانقاذ نسائنا من وصمة عارأربعة عشر مائة عام واحضارهن الى نور الحرية والمساواة. وفى ذلك اليوم سوف يمارس الناس الدين بسعادة وليس بالقوة، وستكون الحياة خالية من الملل،وستكون هناك صلاة وألعاب ، وبعد ذلك سنكون قادرين على رؤية المعنى الجميل للاسلام مثل قطع الماس.

ان صاحب السيادة هذا مذعور من الغرب والمستشرقين لدرجة أن البحث الاسلامى الذى دام أربعة عشر مائة عام يبدو أنه عفا عليه الزمن وأقل شانا منه، وان العلماء الذين قدموالنا الكاميرا والساعة والبوصلة والنظارة والمادة المتفجرة والكحول والحكمة والطب والمنطق والفلسفة والكيمياء وعلم الجبر بالاضافة الى الفهم الفريد للقرآن والحديث والفقة والكلام الخ، ان هؤلاء العلماء يبدون جهلاء لهذا الرجل. ياللجعب! يوجد بيت بالفارسية مما يعنى أنه اذا لم يتم رؤية الخفافيش فى وضح النهارفما هوالخطاء فى الشمس؟مفهوم البيت هذا يتحقق كاملا بالنسبة لمثل هؤلاء الناس.

بعض أعضا ء الطبقة الدينية:

ومن الجدير بالذكر هنا أن الحركة الاستشراقية لم تؤثر على المثقفين المعاصرين

فقط، بل أثرت أيضا على العديد من الأشخاص المنتمين الى الطبقة الدينية الذين انجرفوا الى التيار الرئيسى للحركة الاستشراقية. فى هذا الصدد، يمكننا اعطاء اسم كبير للمفتى محمد عبده من مصر الذى ربما يكون أكبر اسم فى التعبير الحديث للاسلام فى العالم العربى. ثم هناك قائمة طويلة من تلاميذ المفتى محمد عبده الذين قدموا نفس الصورة للاسلام فى العالم العربى الذى كانت كاميرته فى أيدى المستشرقين. ولعب الشيخ طنطاوى جوهرى ، تلميذ بارز للمفتى محمد عبده، دورا مهما فى هذا الصدد. انه كتب تفسيرا على القرآن بعنون " الجواهرفى تفسير القرآن الكريم " المشتمل على خمسة و عشرين مجلدا، وربط فيه كل آية تقريبًا بالتفسيرات العلمية وقد استخدم، اغماضا عن الأصول والآثار، مثل هذه التفسيرات التى لاعلاقة لها بآيات القرآن. ولم يلتفت الشيخ طنطاوى فى كثير من الاحيان حتى لأمثال وتعبيرات الكلمة العربية.

ان التفسير للعلامة طنطاوى موجود حاليا على طاولة دراستى. لاشك أنه عمل بجد، وربما يكون تفسيره هوأول كتاب فى العالم الاسلامى (فى حد معلوماتنا) يتم فيه تفسير كل آية من "الم" الى "والناس" علميا. وبصرف النظر عن الطريقة، فأنا أختلف معه أيضا فى أنه يعتبر هذا الأسلوب فى تفسيرالقرآن واجبا بل "فرض عين" ،واولئك الذين يعارضون هذا الأسلوب فى التفسير يسميهم الشيخ بالجهلاء والمغرورين. انا، على أى حال، ليس بمستعد لجعل القرآن مسرحية للأطفال لمواكبة العصر والتعبير عن معجزات القرآن.

قبل المزيد من التفصيل،أنظر هنا مقال العلامه طنطاوى جوهرى الذى يجعل فيه التفسيرالعلمى للقرآن الكريم الزاميا. انه يكتب:

"يا أمة الاسلام ! آيات معدودات فى الفرائض اجتذبت

فـرعا من علم الرياضيات، فمابالكم أيها الناس بسبع مأة آية فيهـا عـجائب الدنيا كلها،الله اكبر جل العلم وجلت الحكمة. هذا زمان العلوم، هذازمان ظهور نور الاسلام ، هـذا زمـان رقيه، ياليت شـــعرى لماذا لانعمل فى آيات العـــلوم الكونية مافعله آباؤنا فى آيات الميراث؟ولكنى أقـــول الحمد لله الحمدلله انک تقرأ فى هذا التفسير خـلاصـات من العلوم ودراستها أفضل من دراســـة علم الـفـرائـض لأنـه فـرض كفاية فأما هذه فانها للازدياد فى مـعرفة الله وهى فرض عين على كل قادر كما هومقرر فى باب الشكر للامـــام الغزالى وهى نفس علم التوحـــــيد الـحقيقى والمعرفة والشكر يكونان على كل امرئ بقدر طاقته ، ان هذه العلوم التى أدخلناهافى تفسيرالقرآن هى التـى أغفلها الجهلاء المغرورون من صـــغار الفقهاء فى الاسلام فهذازمان الانقلاب وظهور الحقائق"[٥]۔

رأيـى الـخـــاص فيما يتعلق بالتفسير العلمى للقرآن هوأن القرآن هو فى الأساس كتاب هداية، ولقد أعـــطانا الله تعـــالى هذا الكتاب حتى نتمكن من قراءته وفهمه وتـطبيـقـه فى حياتنا اليومية، والآن بما أن القرآن كلام الله وبحر معانى مخفى فى كل كـلمة فيه، اذا كان أى بحث فى العلم الحـــديث يتطابق بوضوح مع القرآن دون أى تـوتـر، فلا حرج فى رأيى الشـــخصى من التصريح بأنه متوافق مع الآية القرآنية، لكن ليس من الحكمة ربط كل آية بالعلم الحديث، بغض النظر عن جميع المبادى للتفسير والتعبيرات لكلام العرب.

لنفترض اليوم أنک قمت بسحب آية من القرآن وربطتها بدراسة العلوم الحديثة ، ولـكـن مـاذا ستفعل اذا تغيرت نظرية العلم هذه فی المستقبل؟ لأن هذا هو العلم حيث يـمكن أن تكون نظرية الصـــباح خاطئة فی المساء. مثلما اقترحت الفلسفة اليونانية ذات مـرة فكرة تسع سماوات، لكن هذه الفكرة اليوم ضاعت فی مكان ما فی السماء. لـذلک لاتشرحوا معنی أی آية من القرآن باطـــالة وتوتر لاداعی له، ولكن كمسلم، اعتـقدوا أن كل كلمة فی القرآن صحيحة و معصومة من الخـــطاء ولامجال للشک فيها، واذا لم نفهم اليوم معنی أی آية من القرآن لسبب ما فلايهم، ان شاء الله تعالی! ان لم يكن اليوم فسيتم فهم هذا لمعنی غدا،لأن الوقت هو مفسر عظيم للقرآن۔

ان" سـر "السيد احمد خان هو أيضا أحد الاشخاص الذين استلهموا أفكارهم من الـمستشـرقيـن واحتـقروا علماء الاسلام وحيدوا عن مبادی الشريعة. اسمحوا لی أن أوضـح هـنا أن" سرسيد" كان بالفعل مثقفا ونباضا للزمن، وكان يعرف الوقت ويعرف كيف يـعـمـل وفق متطلبات الـــعصر، ويجب أن نشكره جميعا علی ما فعله من أجلنا، وشـخـــصيا كنت دائما معجبابه، لكنی أختلف بشدة مع جزء كبير من البحث العلمی الـذی قـدمـه، وأنا لا أتفق معه لأنه تقدم بخطوتين علی المفتی عبده وتلاميذه، واصفا كـل أربـع مأة عام من البحث الاســـلامی حـــول القرآن بأنه موضوع عديم الجدوی وضـعيف وشئ لا أســـاس له، ثم أعاد احيـــاء نفسه بروح دعم المفكرين الغربيين. استمعوا الی القصة كاملا بلغته، انه يكتب:

"میں نے بقدر اپنی طاقت کے تفسیروں کو پڑھا اور بجز ان مضامین کے
جو علم ادب سے علاقہ رکھتے ہیں، باقی کو محض فضول اور مملو بروایات
ضعیف و موضوع اور قصص بے سروپا سے پایا جو اکثر یہودیوں کے
قصوں سے اخذ کئے گئے تھے۔ پھر میں نے بقدر اپنی استعداد و طاقت

کے کتب اصول تفسیر پر توجہ کی، اس امید سے کہ ان میں ضرور کوئی ایسے
اصول قائم کئے ہوں گے جن کا ماخذ خود قرآن مجید یا کوئی اور ایسا ہوگا
جس پر کچھ کلام نہ ہو سکے، مگر ان میں بجز اس قسم کے بیان کے کہ قرآن
مجید میں فلاں فلاں علم ہیں۔ مثلا فقہ وکلام و وعظ اور اسباب خفائے نظم
قرآن ولطافت نظم اور بیان اختلاف تفاسیر کے یا شرح غریب قرآن
کے اور کچھ نہیں ہے۔ جو زیادہ مبسوط ہیں ان میں آیات مکی و مدنی، صیفی
وشتائی، یومی ولیلی اور ان کے حروف وکلمات یا بحث مجاز وغیرہ کے کوئی
ایسے اصول نہیں بتائے ہیں جن سے وہ مشکلات جو درپیش ہیں، حل
ہوسکیں۔۔۔ پھر میں نے بقدر اپنی طاقت کے خود قرآن مجید پر غور کی
اور چاہا کہ قرآن ہی سے سمجھنا چاہئے کہ اس کا نظم کن اصولوں پر واقع
ہوا ہے؟ اور جہاں تک میری طاقت میں تھا، میں نے سمجھا اور میں نے
پایا کہ جو اصول خود قرآن مجید سے نکلتے ہیں ان کے مطابق کوئی
مخالفت علوم جدیدہ میں نہ اسلام سے ہے اور نہ قرآن سے۔ اگر
راست من پرسی شاکر قرآن عظیم ام وہذا قولی کما قال شاہ ولی اللہ۔ پھر
میں نے انہیں اصول پر ایک تفسیر قرآن مجید کی لکھنی شروع کی جو اس
وقت سورہ النحل تک ہو چکی ہے' [٦]۔

الترجمة: قرأت التفسيرات بأفضـــل ما لـــدى، وباستثناء المقالات عن الأدب، وجـدت جـميعها مليئة بالقصص التافهة والضعيفة والموضوعية ، ومعظمها مأخوذ من الـقـصص اليهودية. ثم وجهت انتباهي الى كتب أصول التفسيرحسب قدرتي وقوتي ، على أمل أن تكون فيها مبادى تستند الى القرآن أو ماشابه، التي لا نظر فيها ولكن ليس فيهـا سـوى ذلك بـأنه في القرآن علم كذا و كذا، كالفقه والكلام والمواعظ ،وأسباب

خفاء نـــظم القرآن، ولطافة النـــظم ، وبيان اختلاف التفاسير، وشرح غرائب القرآن؛ وتناقش الكتب التى صنفت بمزيد من التفصيل فى آيات مكية ومدنية وصيفية وشتائية ويـومية وليـلية وحروفهاو كلماتها أوالمعنى المجازوما الى ذلك،لكنها لاتذكرأيا من الـمبـادى التـى بموجبها تزول تلك المشكلات التى نشعربها....ثم اعتبرت القرآن بـأفـضـل مالدى وأردت أن أفهم من القرآن نفسه ،ماهى المبادى التى تحكمه؟لذلك فهـمـت حسـب قوتى و وجدت أنه وفقا للمبادى التى يخرج بها القرآن نفسه،لايوجد تعارض بين العلم الحـــديث والاســـلام أوالقرآن.اذا سألتنى الحق فأنا ممتن للقرآن الـكريم وهذا قولى كما قال شـــاه ولى الله. ثم بدأت فى كتابة تفسير عـــلى مبادى القرآن (التى استخرجتها بنفسى) واما التفسير فقد تم الى سورة النحل حتى الآن.

بالاضافة الى ذلك!فان الطريقة التى قدناقش بها "سر سيد" أثناء سرد تفسيرسورة الاسـراء،بـعد الاستشهاد بمختلف الأحاديث المتعلقة بالمعراج، ستجعل جزءا كبيرا مـن الأحـاديـث مشكوكا و مشبوها. واذانظرت الى كتابات "سر سيد" ستجد أنه قدم هـذا البحث العجيب مصابا بالمستشرق الشهير"وليم ميور" لأن الطريقة التى تحدث بها وليم ميورعن العناصر المعجزة ، نحن نجدها فى كتابات سر سيد كاملة وشاملة.

من هو وليم ميور وماذا فعل؟ سوف نتوسع فى هذا لاحقا، وافهم هنا أن سر ســـيد، بالأضافة الى المعراج الجسدى ، أنكرالمعجزات المتعلقة بمولد النبى صلى الله عليه وآلـه وسلم ، فوراء انكاره قد لعبت كتابات وليم ميورهذا دورا مهما لأن أفكارسرسيد فى هذاالصدد تحتوى على آثاركتابات وليم ميور.

فى هذه الحقائق، أود أن أقول بكل ثقة أن الخسارة التى عانينا منها نتيجة التحقيق الخاطى للمستشرقين هى أن العديد من علمائنا الموهوبين والمكرمين قد تدفقوا أيضا الى الحركة الاستشراقية.

مناهج البحث العلمى:

يعتمد أسلوب البحث لدى المرتبطين بالحركة الاستشراقية عموما على الغدر والخيانة. لقد جرب غالبية المستشرقين باسم البحث العلمى كل طريقة التى تمكنوا بها من تشوية صورة الاسلام والمسلمين. نحن نقدم لمحة عن طريقة بحثهم فى الأسطر التالية:

تطلع الى الجانب الضعيف:

لقد كان من عادة المستشرقين أن يناقشوا بالتفصيل وبشكل مركزى جانب الأمر الذى يمكنهم من خلاله تشوية سمعة الاسلام والحضارة الاسلامية. لذلك فى تسليط الضوء على هذه القضية، كتب حضرة العلامة أبوالحسن على الحسنى الندوى:

> "ورغم هذا الاعتراف بفضلهم وعلمهم لايمنعنى شئ فى هذا المجلس العلمى المؤقر، من أن أصرح بأن طائفة كبيرة من المستشرقين كان دأبها البحث عن مواضع الضعف فى الشريعة الاسلامية والحضارة والتاريخ الاسلامى، وابرازها لأجل غاية سياسية أودينية، فكأن شأنهم فى ذلك شأن من لايرى فى مدينة ذات بهجة و نضارة، ونظام ونظافة، الا مزابل ومراحيض ومستنقعات، كما هو دأب مفتش الأوساخ والمياه المصرفة (Drain Inspector) فى البلديات وأمانات العواصم،فيرفع بذلك تقريراالى الجهات المختصة لايجد فيه القارى-بطبيعة الحال- الا الحديث عن

العفــونات والأوســاخ. فنرى كثيرا من المستشرقين يـركـزون كـل جهودهم ومساعيهم على تعريف مواضع الـضـعف فى تاريخ الاسلام و مجتمعته ومدنيته، حتى فى ديانته وشريعته وتمثيلها فى صورة مروعة مضخمة، انهم يـنـظـرون اليهـا عن طريق "المجهر" (Microscope) ويعرضونها كذلك للقراء حـــتى يروا الذرة جبــــلا، والـنـقطة بحرا، وقدظهرت حذاقتهم وذكاؤهم فى كثير من الكتابات فى تشويه صورة الاسلام، ويثيرون بذلك فى قلوب قادة العالم الاســــلامى اليوم وزعمائه - ممن تثـقـفوا فى مراكز الغرب الثقافية الكبرى، أو درســـوا الاسلام بلغات الغرب - شبهات حول الاسلام والمصادر الاســــلامية، ويحدثون فى نفوسهم يأسا عن مستقبل الاســـلام، ومقتا على حاضرة، وسوء ظن بماضيه، حتى يتركز نشاطهم وحماسهم فى رفع هتاف "تطوير الدين" و "اصلاح القانون الاسلامى"[٧].

خيانة علمية:

مـن أســـاليب المستشرقين أنهم يستخدمون الغدرالعلمى والتضليل. على سبيل الـمثال؛يعد ولـــيم ميـــور، كان من اسكات ليند، مستشرقا معروفا وكان أول مدير لـلحكومة البريطانية فى الهند وانضم لاحقا الى "جامعة ايدنبرغ" كباحث عربى. على حـد مـعلوماتنا، كان أول من كتب أول كتاب من الســـيرة النبوية باللغة الانجليزية بعنوان "Life of Mahomet". يكتب وليم ميـــورهذا فى ضوء السيرة النبوية عن

معانى الآيات القرآنية:

Some of the rhapsodical fragments embodied in theCor'an were probably composed by Mahomet as his own, before he conceived the notion of an absolutely objective revelation; but by the true believer the supposition would be rejected as impious. From beginning to end, in his eyes, every word of the Cor'an emanates direct from the Almighty. (8)

الترجمة: من المحتمل أن محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) قد ألف بعض الأجزاء غير ذات الصلة من القرآن بنفسه قبل أن يعتبرها وحيا روحيا محددا، لكن المؤمن الحقيقى يرفض هذه الفرضية لأنه يرى أن الله نفسه أنزل كل كلمة من القرآن مباشرة.

هل رأيت؟ هذا ما قلناه بأن الخيانة العلمية كانت من سمات المستشرقين. أثناء مناقشته للوضع التركيبى للآيات القرآنية، نسى وليم ميور بأن القرآن هو فى الأساس كتاب ارشاد وليس كتاب قصص. لذلك لاتوجد حادثة فى القرآن موصوفة بالتفصيل بالطريقة التقليدية، بل يشير فقط باختصار الى نفس الحادثة حتى لايضيع قارئ القرآن فى سحر القصص ويبتعدعن الهدف الحقيقى وهوالهداية. ولذلك كثيرا ما يقال فى القرآن : فاعتبروا يا أولى الابصار، وبعبارة أخرى، فان النية الالهية لرواية هذه الأحداث ليست أن تضيع فى تقلبات هذه الأحداث وتنسى التعلم منها. وهذا هوالسبب فى أن القرآن لايروى حتى الأحداث التى لم تعرفها العرب أو تعرف القليل عنها، مثل القصص الأسطورية للهند القديمة أوقصص الجمال والحب لليونان القديمة؛ لأن الغرض الحقيقى من القرآن هوأن يقرأ الانسان القرآن ويتصرف بناء

عـليـه، وبـما أن العرب ما كانت قادرة على أن تستفد من هـــذه القصص القديمة من الناحية العملية، فان القرآن لم يذكر هذه القصص على الاطلاق.

فـي ضـوء هـذه التفسيرات، نود أن نقول ان القرآن لم يروى الأحـــداث بالطريقة التقليدية لغرض أكبر، لكن وليـــم ميـــور نسى هذا الغرض ومتطلباته،وقال انه بما أنه لايوجد اتصـــال عرضى فى بعض الآيات، لذلک يجب أن تكون هذه الآيات صادرة عن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه. سبحان الله! هذا بهتان عظيم.

المحسوبية:

من سمات المستشرقين أنهم منحازون للغاية عند مناقشة أى قضية. على الرغم من أن هـذا يمكن أن يقال أنه جـــدير بالثناء من حيث الجنسية والدعم الوطنى الا أنه فى مـجال العلم والبحث يسمى بدم العدالة.على سبيل المثال،لجأ وليـــم ميور فى كتابه "Life of Mahomet" الـى المصادرالأصلية، خاصة الى السيرة النبويه لأبن هشام، لـكـن الـطـريقة التى علق بها وليم ميور بعد سرد الأحداث تعطيک فكرة واضحة عن مدى تحيزه.

العصبية:

وقـد وجـه كثيـر من المستشرقين،من منطلق تحيزهم وضيق أفقهم، اتهامات للنبى صـــــلى الله عليه وآله وسلم بأن الكبد يتبـــادر الى الفم بمجرد التفكير،كما وفقا للمستشرق الفرنساوى" كارادى واكس" ان محـــــمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) كـان يـذكـرلـفترة طويلة فى الغرب بسمعة سيئة للغاية ولايكاد يوجد أى شر أوخرافة أخلاقية لم تنسب اليه.

علامة استفهام:

ومن أساليب البحث الاستشراقى أنها تترک علامة استفهام بالأفكار الاســـلامية

حـــــتى يضلل الشـــــخص الذى يقرأ الكتابة وتنشأ فى قلبه شكوك حــــول الأفكار الاســــــلامية.

الخداع والدسيسة:

كـان من أساليب المستشرقين أنهم عندمايكتبون عن الشخصيات الاسلامية فانهم يـغـطـون جميع جوانب حياة بطلهم بطريقة جيدة، لكنهم فى نفس الوقت يكتبون أيضا بعض الأشياء عن المعائب والنقائص دون تمحيص. من خــــلال سلوكهم، يبدوا أنهم يعطون انطـــباعا بأنهم لم يتركوا أى جزء من الشـــــخصيات متعطشا، حتى الى د رجة العيوب،ولكن فى الواقع، فان مثل هذه الأفعال تلطخ الشخصيات.

آراء المستشرقين فى التصوف الاسلامى

بـعد معرفة المستشرقين وآرائهم، نريد الآن مناقشة الجزء الثانى من المقال، أى ما هى ماهية التصوف الاسلامى وكيف يقدمها المستشرقون؟

أولاوقبـل كل شئ، دعونا نوضح أنه بالاشــــارة الى المصـــــدرالأصـــلى للتصوف الاسـلامى، يتفق جميع المستشرقين تقريبا على أن التصوف دخيل فى الاسلام، أى أنه جاء فى الاسلام من خارجه وليس له علاقة بالاسلام الأصلى. نورد فيما يأتى بعض آراء المستشرقين بخصوص التصوف الاسلامى.

ا . يـقول المستشرق الألمانى F A D Thuluk أن التصوف الاسلامى مشتق من الـمذهب المجـــــوسى. فاذا أخذنا فى الاعتبار وجهة النظر هذه عن "ثولوك" فمن الـواضـح أنه بما أن العديد من الصوفية ولدواعلى أرض ايران، فقد توصل المستشرق الألمانى الى استنتاج مفاده أن المجوســــية القديمة فى ايران كانت أصل التصـــوف الاســـلامى،لكنه نسى هنا أنه قبل مئات السنين من ولادة الصوفية فى ايران،كان اللون الحقيقى للتصوف موجودا حتى بين الصحابة العظام.

۲ . يقول Dozy، المستشرق الهولندى، ان التصوف فى الاسلام جاء من بلاد فارس، وفى فارس أتى من الهند.

۳.يرى المستشرقون مثل Max Horton,Hortman و A Von Cremer أن التصوف الاسلامى مشتق فى الواقع من الهندوسية. ربما توصلوا الى هذا الاستنتاج من خلال النظر فى مجاهدات الصوفية ومراقباتهم و "تبسيا ،و،ديان" لليوغيين الهندوس، وما الى ذلك. لكن المثير للدهشة أنهم قارنوا المجاهدات والمراقبات للسادة الصوفية بأصول " جوغ و بيراغ" للهندوسية لكنهم لم ينظروا الى الحياة الروحية للنبى صلى الله عليه وآله وسلم.

۴. يرى بعض المستشرقين أن التصوف الاسلامى مشتق فى الواقع من المسيحية. بعبارة أخرى، كان للمسيحية بالفعل مفهوم الرهبانية، لذلك تعلم الصوفية للاسلام من هذه الرهبانية وملأوا قماش الاسلام بلون التصوف المسيحى.

۵ . يقول بعض المستشرقين أن التصوف الاسلامى هو فى الواقع شكل من أشكال التصوف اليونانى. و وفقا لهم،فان بعض أفكارالتصوف الاسلامى تتماشى مع الفلسفة اليونانية،التى تشيرالى أن التصوف الاسلامى مشتق بالفعل من الفلسفة اليونانية.

قصارى الكلام، عدد الكلمات كما توجد أفواه؛ لذلك، وبالنظرالى آراء المستشرقين، فى هذا لمقال سنحاول أن نتحدث قليلا عن المصدرالأصلى للتصوف الاسلامى وماهيته ان شاء الله تعالى.

دعنى أوضح أننى، الحمدلله والحمد لله، كتبت قبل أيام قليلة مقالا مفصلا باللغة الانجليزية عن حقيقة التصوف الاسلامى وماهيته، وفى ذلك المقال بذلت قصارى جهدى لأوضح أن التصوف الاسلامى ماهوالا العمل الكامل على القرآن والسنة. أقوم بترجمة أجزاء من نفس المقال الى العربية بسبب تشابه المعنى هنا.

مصدر التصوف:

قال الله تعالى فى القرآن المجيد: ﴿هُوَ الَّذِىْ بَعَثَ فِى الْاُمِّيّٖنَ رَسُوْلًا مِّنْهُمْ يَتْلُوْا عَلَيْهِمْ اٰيٰتِهٖ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ﴾. ذكر الله تعالى فى هذه الآية على وجه التحديد أربع مسؤوليات لمنصب النبوة. الأول:هو تلاوة الآيات، والثانى: هو تنقية الأمة،والثالث:هو تعليم الكتاب،والرابع:هو تعليم الحكمة.الآن من بين الأعضاء الأربعة،محورمناقشتنا هوالثانى أى "تزكية الأمة"،لذلك فى الوقت الحالى نبتعد عن الأعضاء الثلاثة الآخرين. والسوال الآن ماهى التزكية؟لذا اسمع، فان تطهير القلب والروح من كل أنواع الصفات الخبيثة تسمى التزكية. ووفقا لهذاالتعريف، نظرا لأن تنقية القلب يتم ترتيبها ضمن التزكية ويرتبط القلب بالكائن الداخلى للفرد، يبدو الأمركمالوأننا نفسرتنقية الحالة الداخلية للفرد على أنها تزكية.وقدحرص النبى صلى الله عليه وآله وسلم على تطهير قلب الأمة وروحها حتى آخر نسمة من حياته الظاهرة، وبعد النبى صلى الله عليه وسلم قبل الصحابة هذه المسؤولية، ثم التابعين، ثم تبع التابعين، ثم الورثة؛ وهكذا كانت هناك دائما جماعة فى أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) جعلت من تطهير الأمة رسالتها، وبما أن اسم هذا التطهير للأمة هو التصوف فانه يبدوكما لو أن "التصوف الاسلامى" ليس من نتاج العصورالمتأخرة أو أتى فى الاسلام من الأمم الأخرى كما يدعى المستشرقون بل هو أسلوب حياة دينية علمنا اياه الله تعالى ورسوله الأكرم، صلى الله عليه وسلم.

وفى رواية البخارى ومسلم، سأل جبريل النبى صلى الله عليه وسلم أن يربى الأمة: أخبرنى عن الاحسان، قال:أن تعبدالله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراه. أعطى العلامة الشيخ على بن سلطان محمد القارى تشريحا جميلا لهذه العبارة فى مرقاة المفاتيح شرح مشكوة المصابيح. نحن نذكرهنا بأختصار أن " الاحسان" الوارد فى

الحديث هو أصل التصوف الاسلامى، أى يجب أن يتوجه العبد الى ربه الكريم بطريقة تجعله غير مدرک للكون بأسره ولايرى شيئا سوى ذاته تعالى فى أنحاء العالم .واسم هذه العبادة كاملا هو التصوف، واعتبارا لجزء من الحديث السابق، فهو ليس من نتاج البدعة أوالعصور المتأخرة، بل هومثال جميل من أحكام النبى صلى الله عليه وسلم.

وخلاصة القول أن التصوف ليس بدخيل فى الاسلام بل هو روح الاسلام المبنى على الكتاب والسنة والذى شرحه كبارالعلماء فى كتاباتهم.نعم! الآن اذاكان هناک شخص يزعم أنه صوفى لكن أفعاله ضد الكتاب والسنة فهومسؤول عن أفعاله المحظورة وليس التصوف نفسه. لذلک يقول امام الصوفية حضرة ذوالنون المصرى رحمه الله تعالى: "من علامات المحب لله عزوجل؛ متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه"[٩].

ماخذ الاشتقاق للتصوف و وجه التسمية للصوفى:

وأقوال العلماء الكبارفى ماخذ الاشتقاق للفظ التصوف ووجه التسمية للصوفى تزيد على ألف قول،لكنه بما لايمكن نسخ كلمات جميع الناس،يكفى نسخ كتابات قلة من الناس. فحضرة الشيخ الامام أبوالحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى الغزنوى " داتا گنج بخش" يكتب فى كشف المحجوب:

"وقد تكلم الناس فى تحقيق هذاالاسم
كثيراوألفوا كتبافى ذلک،وقالت جماعة ان الصوفى
يسمى بالصوفى لأنه يلبس ثياب الصوف، وقالت
جماعة انهم سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول،وقالت
طائفة انهم سموا كذلک لأنهم يتولون أهل الصفة،
وقال آخرون ان هذا الاسم مشتق من الصفاء، ولكن هذا

الاسم على مقتضى اللغة بعيد عن هذه المعانى. والصفاء فى الجملة محمود، وضده الكدر، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ذهب صفو الدنيا وبقى كدرها. واسم لطائف الاشياء: صفوها، واسم أوضارها: كدرها، فلما هذب أهل هذا الأمر أخلاقهم ومعاملاتهم وتبرأو من آفات الطبيعة فانها سموا صوفية، وهو اسم لهذه الطائفة من أسماء الأعلام، لأن خطر أهله اجل من أن يمكن اخفاء معاملتهم حتى يلزم لاسمهم اشتقاق" [١٠].

ان حضرة الشيخ الامام العلامة محى الدين قطب الاسلام صدر الأئمة أبومحمد عبدالقادر بن أبى صالح موسى الجيلانى يكتب فى "الغنية لطالبى طريق الحق عزوجل":

"صوفى على وزن فوعل، ماخوذ من المصافاة، يعنى عبدا صافاه الحق عزوجل، ولهذا قيل: الصوفى من كان صافيا من آفات النفس، خاليا من مذموماتها، سالكا لحميد مذاهبه، ملازما للحائق غيرساكن بقلبه الى أحد من الخلائق. وقيل: ان التصوف الصدق مع الحق وحسن الخلق مع الخلق" [١١].

وقال الامام المحدث الفقيه العلامة الزاهد القدوة شهاب الدين عمر بن محمد السهروردى فى عوارف المعارف:

"أخبرنا الشيخ أبوزرعة طاهربن محمد بن طاهر، قال:

أخبرني والدى، قال:أنا أبوعلى الشافعى بمكة حرسها الله تعالى ، قال: أنا أحمد بن ابراهيم، قال، أنا أبوجعفر محمد بن ابراهيم، قال: أنا أبوعبدالله المخرومى، قال: حدثنا سفيان، عن مسلم ، عن أنس بن مالك ، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ويركب الحمارويلبس الصوف. فمن هذا الوجه ذهب قوم الى أنهم سموا صوفية، نسبة لهم الى ظاهر اللبسة، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام. روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبيا حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام. وقيل:ان عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى.وقال الحسن البصرى رضى الله عنه: لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف"[١٢].

وقال الامام العالم العارف ابوبكر محمد بن اسحاق البخارى الكلاباذى فى كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف:

"قالت طائفة: انما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها، وقال بشر بن الحارث: الصوفى من صفا قلبه لله، وقال بعضهم: الصوفى من صفت لله معاملته فصفت له من الله عزوجل كرامته، وقال قوم:

انـمـا سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدى الله جـــل وعز بارتفاع هممهم اليه واقبالهم بقلوبهم عليه و وقوفهم بأسرارهم بين يديه، وقــال قـــــوم: انما سموا صـــــوفية لقرب أوصافهم من أوصاف اهل الصفة الذين كانوا على عهد رســـول الله صلى الله عليه وسلم،وقال قوم:انما سمو اصوفيه للبسهم الصـــوف وأما من نسبهم الـى الصفة والصوف فانه عبر عن ظاهر أحوالهم، ذلک أنهم قوم قد ترکو الدنيا فخرجوا عن الأوطـــان وهجروا الاخـــوان وســـاحوا فى البلاد وأجاعوا الأكباد وأعروا الأجســـــــاد،لم يأخذوا من الدنيا الامالايجوزترکه من سترعورة وسد جوعة"[١٣].

وقال الامام الامام العارف عبد الوهاب بن أحمد الشعرانى فى طبقاته:

"سئل (بشر بن الحارث) رضى الله عنه عن التصـــوف، فقال: هو اسم لثلاث معان وهوأن لايغطى نـــــور معرفة الـعارف نور ورعه وأن لايتكلم فى علم باطن ينقضه عليه ظـاهـر الكتاب والسنة ولاتحمله الكرامات على هتک أستار محارم الله "[١٤].

لقد قيل وکتب الكثيرعن ماخذ الاشتقاق للفظ التصوف ووجه التسمية للصــوفى، لكن ملخصه جميعا هو نفسه الذى ذکرناه فى الأسطرالماضية۔

هل الصوفية يخالفون الشريعة؟

وفقا للأدلة الواضحة، فان الصـــوفية يلتزمــون بشدة بالشريعة ويمتنعون عن كل

مايخالف الشريعة. وهنا بعض الأمثلة،كمايقول سيد الطائفة حضرة الشيـــخ الامـــام العلامة جنيد بن محمد البغدادى:

"من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لايقتدى به فى هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة"[١٥].

ان الامام رحمه الله تعالى أضاف قائلا:

" الطـرق كـلهـا مسدودة على الخلق الا على من اقتفى أثرالرسول عليه الصلوةوالسلام" [١٦].

وقال الامام أبوسليمان عبدالرحمن بن عطية الدارانى:

"ربـمـا يـقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه الا بشاهدين عدلين، الكتاب والسنة "[١٧].

وقال الامام أبوالحسين أحمد بن أبى الحوارى:

"مـن عـمـل عـمـــلا بلا اتباع سنة رســـول الله صلى الله عليه وسلم فبـــاطل عمله" [١٨].

الآن، فى ضـــوء الأقتباسات السابقة، يمكننا القـــول ان الصـــوفية يلتزمون بدقة بالشريعة ويبتعدون عن كل ما يخـــالف الشريعة.و يتضح أيضا من هذه الأقتباسات أن التصوف الاسلامى يعتمدكليا على القرآن والسنة ويمثل التيارالرئيسى للاسلام.

قتل العدل:

لـقد أوضحت للتوأن التصـوف الاســـلامى يعتمد كليا على القرآن والسنة،أى أنه مسألة داخلية للاسلام وليس مشتقا من أى أمـة من الامم الأخرى. نعم! لقد حدث أن بعض الصـــوفيين المزيفين والمصطنعين جعلوا محلهم يلمع باسم الصـــوفية، وهؤلاء الأفراد الذين سموا أنفسهم بالصوفية، تبنوا كل عمل قانونى وغيرمشروع لمصلحتهم

الـخـاصة ولـم يمتنعوا حتى عن تبنى شعائر الأمم الأخرى. والجدير بالذكر هنا أن كل هـذا كـان من عمل هؤلاء الصوفيين المزيفين، أى أن التصـوف الحقيقى للاسـلام لاعـلاقة لـه بمثل هؤلاء الصـوفيين المزيفين وتصـوفهم المزيف. لكن عندما انتقد الـخصوم التصوف الاسـلامى، برروا انتقادهم بتقديم نفس الأفعال الخاطئة للصوفية المزيفين.أى أن نقدَ هؤلاء الناس كان قائما على التصوف الحقيقى للاسلام لكن تبرير نقدهم كان مبنيا على أفعـال ما يسمى بالصـوفيين المزيفين. ومع ذلك، فان شرط الـعدالة هو أنه عندما تنتقد التصـوف الحقيقى للاسـلام ، يجب عليك أيضا تقديم الأدلة أمـام التصوف الاسلامى الأصلى وأعمال الصوفيين العظام، لكنك لم تفعل. اذا لم يكن دم العدل فماذا يسمى غير ذلك؟

ماهية التصوف:

جرت مناقشة موجزة لماهية التصوف فى بيان " ماخذ الاشتقاق للتصـوف ووجه التسمية للصوفى" لكنه هنا مزيد من الكلام حتى يتم توضيح الأمر بشكل كامل. فأثناء مناقشة ماهية التصوف،يكتب حضرة الشيخ العلامة الامام شهاب الدين عمربن محمد السهروردى فى "عوارف المعارف":

"واقوال المشائخ فى ماهية التصـوف تزيد على ألف قول، ويطـول نقلها، ونذكر ضابطا يجمع جمل معانيها، فان الالفاظ وان اختلفت متقاربة الـمعانى.فنقـول: الـصـوفى هو الذى يكون دائم التصفية، ولايزال يصفى الأوقـات عن شواب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس، ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره الى مولاه، فبـدوام الافتـقار ينقى من الكدر، وكلما تحركت النفس

وظهـرت بصفه من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة، وفر منهـا الـى ربـه. فبدوام تصفيته جمعيته، وبحكمة نفسه تـفـرقتـه وكدره، فهو قائم بربه على قلبه وقائم بقلبه على نـفسه.قال الله تعـــالى: ﴿كونوا قوامين لله شهـــدآء بـالقسط﴾. وهذه القوامية على النفس هـــو التحـــقق بالتصوف" [١٩].

وقال الامام السهروردى رحمه الله فى مقام آخر:

" قال رويم:التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد.وقال عمرو بن عثمان المكى:التصوف أن يكون العبد فى كل وقت مشغولا بما هوأولى فى الوقت. وقال بـعضهم: التصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله تعالى. وقيل: التصوف فكرمع اجتماع ووجد مع استماع و عمل مع اتباع.وقيل: التصوف ترك التكلف وبذل الروح.وقال سهل بن عبد الله:الصـــوفى من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانـــقطع الى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر. و ســـئل بعضهم عـــن التصـــوف فقال: تصفية القلب عن موافقه البرية ومفارقة الأخــــلاق الطبيعية واخمــــاد صفات البشرية ومجانبة الدواعى النفسانية ومنازلة الصفات الروحـــانية والتعلق بعلوم الحقيقة واتباع الرسول فى الشريعة" [٢٠].

وقال الشيخ الامام القدوة أبوعبد الله الحارث بن أسد المحـــاسبى البصـــرى فى

"رسـالة المسترشـدين":

"العمل بمحكمه من الأمر والنهى والخوف والرجـاء لـوعده و وعيده والايمان بمتشابهه والاعتبار بقصصه و أمثـاله ، فاذا أتيت بذلك فقد خرجت من ظلمات الجـهل الى نـورالعلم ومن عذاب الشك الى روح اليقين" [١٢].

اذا أخـذت فى الاعتبار الاقتباسات المذكورة، ستجد أنه وفقا لأئمة التصوف، فان ماهية التصوف ليست سوى أن يبدأ العباد فى اتباع القرآن والسنة تماما. ولذلك، فى ضـوء هـذه التـفسيرات، يمكن القول الآن انه اذا اتبع الرجل القرآن والسنة كاملا فهو صـوفى على الاطـلاق حسب تفسيرات أئمة التصوف، ولكن اذا كانت ممارسته مخـالفة للشرع أى القرآن والسنة، فهو يستطيع أن يكون أى شئ لكن لايمكن له أن يكون صوفيا.

هل يؤمن الصوفية بالحلول والاتحاد؟

يدعى بعض الناس أن الصوفية يومنون بالحـلول والاتحـاد، على الرغم من أن كتـابات الصوفية بنفسها تظهر أنهم يعارضون بشدة عقيدة الحلول والاتحاد. فأوضح حـضـرة الشيخ الامام عبدالوهاب بن أحمد الشعرانى أن بعض الأوغاد اتهموا المفكر الصوفى الكبيرالشيخ الأكبر الامام محى الدين محمد بن على الحاتمى المعروف بابن عـربى بالعداء،رغم أن كتابات الشيخ نفسها تنص على أنه لم يكن معارضا فقط لفكرة الـحـلول والاتحاد بل كان يعتقد أن هذه وجهة النظرللكفار، واذا كان المسلم يؤمن بهذه الفكرة فانه يصبح كافرا. سنناقش هذا المدعى بشئ من التفصيل.

والـقضية أن هناك نظرية بين السادة الصوفية تسمى "وحدة الوجود"،وان"وحدة

الوجود"هى قضية صوفية بحتة تم شرحها بشكل جميل من قبل حضرة الشيخ الأكبر المعروف بـابن عربى، وجوهر هذه النظرية هو أنه لايوجد فى الكون وجود حقيقى سوى الله تعالى، أى ان الله تعالى هوحقيقيا موجود فى الكون وكل ماهو دونه، عكس ومظهر لذاته عزو جل، لكن هذا لايعنى أنى وأنت وخالد وبكروزيد وعمر والأشجار والصخور والزهور والطرف،كلهم آلهة ؛ لا،كّلا ؛ انه يعنى ببساطة أن الكائن الحقيقى خاص بالله وحده ، لأنه كان دائما وسيظل كذلک، ولذلک قال تعالى فى القرآن العظيم: ﴿كل شئ هالک الا وجهه﴾. وبقدر مايتعلق بالخليقة ، لم يكن الخليقة من قبل؛اذا خلق الله تعالى الخلائق ثم جاء ت الى الوجود، وفى يوم من الأيام ستهلک هذه الخلا ئق بأذن الله تعالى، وفى هذه الحالة لاينشأ سوال الوجود الحقيقى بصدد الخلائق،لأن الوجود الحقيقى هوما هو موجود بنفسه، والذى لم يخلقه أحد، والذى كان دائما وسيبقى كذلک؛ وبما أن هذا الوجود يخص الله تعالى وحده، يبدو الأمر كما لوأن الله تعالى وحده موجود بالفعل فى هذا الكون؛ونحن جميعا مجرد عكس ومظهرمن مظاهر وجود الله تعالى.

أخبرنى الأن،من أين أتت فكرة الحلول والاتحاد فى فكرة وحدة الوجود؟لدرجة أنک تؤمن أيضا بأننا جميعا فى درجة الامكان وان الصوفية يقولون ان الممكن هو "العكس"، وهى حقيقة أن "العكس" يختلف دائما عن "الأصل" فى ماهيته. فأين العدل فى ربط كلمات الصوفية أى العكس بالأصل؟ أى أنه بسبب "نظرية العكس" للصوفية، انفصلت الخلائق عن ذات الله تعالى، ثم رغم هذا التفسيرأين العدل فى اتهام الصوفية بالحلول والاتحاد؟ نعم!الآن اذا قال شخص ما شيئا عن الحلول والاتحاد، فمن الضرورى تاويل رأيه،لأن الحلول والاتحاد قد رفضهما كبار الصوفية. لذلک يقول الشيخ الاكبر وهو ينفى فكرة الحلول:

"من قال بالحــلول فهو معــلول، فان القول بالحـــلول مرض لايزول"[٢٢].

و أضاف قائلا:

"ومــاقــال بــالاتــحــاد الا أهل الالحـاد كمـا أن القـائل بالحـــلول من أهل الهجل و الفضـــول" [٢٣].

قال الشيخ الأكبر فى باب الأسرار، من: الفتوحات المكية:

"الحـــادث لايخلو عن الحـــوادث،لو حل بالحادث الـقديم لصح قول أهل التجســـيم، فالقـــديم لايحل ولايـكون محلا "[٢٤]. "وقال فى هذا الباب أيضا:أنت أنـت وهوهو،فاياک أن تقول كما قـــال العاشق: أنا من أهـوى ومن أهوى أنا، فهل قدر هذا أن يرد العين واحدة؟ لا، والله! ما استـــطا ع، فانه جـــهل والجـــهل لايتعقل حقا"[٢٥].

وقـد كتب الشيخ الأكبر أشياء أخرى فى تنفيد نظرية الحلول نقلها الامام الشعرانى فى اليواقيت والجواهر. وقد قال الشيـــخ عبدالقادر عيسى فى"حقائق عن التصوف" وهو يدحض نظرية الحلول والاتحاد:

"ان من أهـــم ما يتحامل به المغرضون على الســـادة الصوفية اتهامهم جهلا و زورا بأنهم يقولون بالحـــلول والاتحاد، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قدحل فى جميع آجزاء الكون؛ فى البحار والجبال والصخور والأشجـار والانســـان والحيوان. الخ، أو بمعنى أن المخلوق عين

الـخـالـق، فكل الموجودات المحسوسة والمشاهدة فى هـــــذا الكون هى ذات الله تعالى وعينه، تعالى الله عن ذلك عـلـوا كبيرا. ولاشك أن هذا القول كفر صريح يـخـالف عقائد الأمة. وماكان للصوفية وهم المتحققون بـالاســـــلام والايمان والاحســـــان أي ينزلقوا الى هذا الدرك من الضـــلال والكفر، وما ينبغى لمؤمن منصف أن يرميهم بهذا الكفرجزافا دون تـمحيص أو تثبت، ومن غيـر أن يـفهـم مرادهم، ويطلع على عقائدهم الحقة التى ذكـروها صريحة واضحة فى أمهات كتبهم،كالفتوحات المكية، واحـــياء عـــلوم الدين ، والرســالة القشيرية وغيرها" [٢٦].

مـن هذه الاقتباسات يتضح أن السادة الصوفية لايؤمنون بالحلول والاتحاد اطلاقا، بـل انهـم يـؤمنون بوحدة الوجود،وربما لاداعى للقول ان نظرية وحدة الوجود مختلفة تماما عن عقيدة الحلول والاتحاد.

رغبة المستشرقين الى التصوف الاسلامى فى ضوء مفهوم الجهاد:

ان الـجهـاد هومصطلح قرآنى وروح للأمة الاســـلامية فى الحياة العملية.والجهاد عـلى نوعين:الـــجهاد الأكبر و الجهاد الأصغر، واسم الجهاد الأكبرهومحاربة الروح ضـد السيئـات وتنقية النفس من الشرور؛ بينما اسم الجهاد الأصغر هوالمشاركة فى الـمعارك الجسدية لرفع رسالة الله تعالى واعلاء الدين المستقيم.والآن ليس هناك شك فى أن حياة الصـــوفى كلها تليق التقليد بالنسبة الى جهاد أكبر، لكن الســوال الـمهـم هـنا هل الصوفية، وهم منخرطون فى الجهاد الأكبر، يجتنبون الجهاد الأصغر؟

لا، والله ! ان حقيقة الحال ليست كذلك. لقد أوضحنا فى الأسطر الماضية أن الصوفيه يلتزمون بأحكام الشريعة ويبتعدون عن كل ما هومخالف للشرع، فكيف اذن لايتبع الصوفية أهم وصية مثل الجهاد؟ والحقيقة أن السادة الصوفية لايترددون فى تقديم أعظم التضحيات لنشر رسالة الله تعالى وتعظيم الدين، لذلك أمامنا أمثلة كثيرة من السادة الصوفية الذين شاركوا فى الجهاد الأصغروقدموا خدمات جليلة وقُتلوا فى سبيل الله.

ضع فى اعتبارك هنا أن التصوف الاسلامى ليس مفهوما للمسيحية يراقب أفكارك و أفعالك عن طريق الصفع أو ترديد التهويدات، لكن التصوف الاسلامى هو صراع عملى بحت، أى ان التصوف الاسلامى لايعنى فقط أن تجلس فى الزاوية وتعبدالله وتقطع علاقتك. لا، ليس هذا هو معنى التصوف الاسلامى ، ولكن معنى التصوف الاسلامى أن تصلى وتعمل، وتصوم وتتاجر، وتذهب الى المسجد وتجرب ذراعك فى ساحة الجهاد الأصغر،لأن اسم الحرية الكاملة للفكروالعمل هوالتصوف الاسلامى .ولذلك قال استاذ المحدثين وأحد أئمة التصوف الامام بشربن الحارث رضى الله عنه:

> "ليتنى على حمار أبتر مقطوع الأذنين، دبر تحت لواء من نفروا ويصيبنى عنان الروم" [٢٧]. وقال لأبن أخته عمر: "يابنى اعمل، فان أثره فى الكفين أحسن من أثر السجدة بين العينين" [٢٨].

بعد هذه التفسيرات، أود أن أقول انه بعد استهداف الاسلام بكل طريقة ممكنة، ان الطريقة التى يهتم بها المستشرقون اليوم بالتصوف الاسلامى ويربطونه بالمسيحية وما الى ذلك، مع تقديم التشريحات الغريبة؛ هل يريدون، وراء هذه التحركات، أن

يجعلو التصـــوف الاسلامى نشوة للمجتمع الاسلامى ويدمرون حرية الفكر و العمل للمسلمين حتى لايأتوا أمامهم مرة أخرى حاملين السيف بأيديهم؟ اعتقد أن المفكرين المسلمين، عليهم أن يتأملوفى هذه القضية.

موجز الكلام:

مـن الـمناقشة حتى الآن،ربما أصبح من الواضح أن التصوف الاسلامى ليس ببدعة وليـس مشتـقـا من أى دين آخر،كما يدعى المستشرقون، ولكنه ميثاق سلوك يعتمد كليا على القرآن والسنة. وتجدر الاشارة هنا الى أن الطريقة التى قدم بهاالمستشرقون تفسيرالتصوف الاسلامى الينا مؤلمة، ولكن الأمر الأكثر ايلاما هو حقيقة أنه قدم بعض اخواننا المسلمين، بوحى من المستشرقين،صورة للتصـــوف الاســـلامى التى كانت كاميرتها فى أيدى المستشرقين.

لـذلك عـليـنـا جـميعا توخى الحذربشأن المستشرقين.اذا قدموا بحثا يتوافق مع الـروح الاسـلامية فلن نقدره فقط بل نقبله كثروة علمية، ولكن اذا قدموا شيئا يصطدم بروح الاسلام، وحتى لوكان هناك تعارض، لاينبغى أن نأخذ دقيقة واحدة لرفضه۔

مصادر الكتاب

1. Ziya Goalap, Turkish Nationalism and Western Civilazation, P:266,267. London, 1959.

2. Ziya Goalap, Turkish Nationalism and Western Civilazation, P:266,267. London, 1959.

3. Asaf A A Faizi, A Modern Approch to Islam, P:107, Asia Publishing House, 1963.

4. Farid S Ja'fari, "The Need for Re-evaluation of Islam in Pakistan", The Pakistan Times, Lahore, August, 11,1967.

٥ـ طنطاوی، الشيخ جوهری. الجواهر فی تفسير القرآن الكريم. ج:٣، ص: ١٩. طبع بمطبعة: مصطفى البابی الحلبی وأولاده بمصر، فی شوال: ١٣٥٠ من الهجرة النبوية على صاحبها آلاف صلاة و سلام .

٦ـ سرسيد، احمد خان ـ تفسیر القرآن ـ مقدمہ ـ مطبوعہ: رفاہ عام ٹیم پریس، لاہور۔

٧ـ ابو الحسن الندوی، علی الحسنی. الاسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين. ص: ١٥، ١٦ . مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان. ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

8. Sir William Miur, The Cor'an: Its composition and teaching. P:13. Society for promoting christian knowledge, London.

٩ . القشيری، الامام ابو القاسم عبدالكريم بن هوازن. الرسالة القشيرية. ص: ٤٥.

مؤسسة دار الشعب، القاهرة. ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٠ .الهجويرى، الشيخ أبوالحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى . كشف المحجوب، ص: ٢٢٧ . جمهورية مصر العربية، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، لجنة التعريف بالاسلام. ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١١ . عبد القادر الجيلانى،ا بن موسى بن عبدالله بن يحيى زاهد بن محمد بن داؤد بن موسى الجون بن عبدالله محضى بن حسن مثنى بن حسن بن على بن ابى طالب. الغنية لطالبى طريق الحق عزوجل. ج: ٢، ص: ٢٧٢. دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان. ١٩٩٧م.

١٢ . السهروردى، الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد .عوارف المعارف. ج: ١ . ص: ٧٠. مكتبة الثقافة الدينية.القاهرة. ٢٠٠٦م.

١٣ . الكلاباذى ،الامام ابوبكر محمد بن اسحاق البخارى.كتاب التعرف لمذهب اهل التصوف. ص:٥،٦. مكتبة الخانجى ، القاهرة . ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٤ .الشعرانى، الامام عبدالوهاب بن احمد بن على . الطبقات الكبرى المسمى لواقح الانوار القدسية فى مناقب العلماء والصوفية .ج: ١ .ص: ١٠٣ . مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٥ . القشيرى، الامام ابوالقاسم عبدالكريم بن هوازن. الرسالة القشيرية. ص: ٨٠. مؤسسة دار الشعب، القاهرة. ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٦ . القشيرى، الامام ابوالقاسم عبدالكريم بن هوازن. الرسالة القشيرية. ص: ٧٩. مؤسسة دار الشعب، القاهرة. ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٧ . القشيرى، الامام ابوالقاسم عبدالكريم بن هوازن. الرسالة القشيرية. ص: ٦٧. مؤسسة دار الشعب، القاهرة. ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٨ .القشيرى، الامام ابو القاسم عبدالكريم بن هوازن. الرسالة القشيرية. ص: ٦٧. مؤسسة دار الشعب، القاهرة. ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٩. السهروردى، الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد .عوارف المعارف. ج: ١. ص: ٦٩. مكتبة الثقافة الدينية.القاهرة. ٢٠٠٦م.

٢٠. السهروردى، الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد .عوارف المعارف. ج: ١. ص: ٦٨. مكتبة الثقافة الدينية.القاهرة. ٢٠٠٦م.

٢١. الحارث المحاسبى، الشيخ أبوعبدالله الحارث بن أسد البصرى. رسالة المسترشدين. ص: ١٣١. مكتب المطبوعات الاسلامية، حلب. ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٢٢. فى: اليواقيت والجواهر للامام عبدالوهاب بن احمد الشعرانى. ج: ١، ص: ١١٧. دار احياء التراث العربى، بيروت ، لبنان.

٢٣. فى: اليواقيت والجواهر للامام عبدالوهاب بن احمد الشعرانى. ج: ١، ص: ١١٧. دار احياء التراث العربى، بيروت ، لبنان.

٢٤. فى: اليواقيت والجواهر للامام عبدالوهاب بن احمد الشعرانى. ج: ١، ص: ١١٧. دار احياء التراث العربى، بيروت ، لبنان.

٢٥. فى: اليواقيت والجواهر للامام عبدالوهاب بن احمد الشعرانى. ج: ١، ص: ١١٧،١١٨. دار احياء التراث العربى، بيروت ، لبنان.

٢٦ .عبدالقادر عيسى، الشيخ. حقائق عن التصوف. ص: ٤٢٤. مركز تحقيقات علوم اسلامى.

٢٧. ابن عساكر، الامام الحافظ ابو القاسم على بن حسن ابن هبه الله الشافعى. تاريخ مدينة دمشق. ج: ١٠، ص: ٢١٠. دار الفكر، بيروت، لبنان. ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

۲۸. ابـن الـعماد، الامام شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحى أحمد بن محمد العكرى الـدمشـقـى.شـذرات الـذهـب. ج: ۳، ص: ۱۲۴. دار ابن كثير، دمشق. ۱۴۰۸هـ/ ۱۹۸۸م.